نصر بن مزاحم

طلب التحكيم

نصر، [حدثنا عمرو بن شمر قال: حدثني أبو ضرار قال: حدثني عمار بن ربيعة] قال: غلس علي بالناس صلاة الغداة يوم الثلاثاء عاشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وقيل: عاشر شهر صفر، ثم زحف إلى أهل الشام، بعسكر العراق والناس على راياتهم وزحف إليهم أهل الشام، وقد كانت الحرب أكلت الفريقين ولكنها في أهل الشام أشد نكاية وأعظم وقعاً فقد ملوا الحرب وكرهوا القتال وتضعضعت أركانهم. قال: فخرج رجل من أهل العراق، على فرس كميت ذندب، عليه السلام لا يرى منه إلا عيناه وبيده الرمح، فجعل يضرب رؤوس أصحاب علي بالقناة ويقول: سووا صفوفكم رحمكم الله، حتى إذا عدل الصفوف والرايات استقبلهم بوجهه وولى أهل الشام ظهره، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه، أقدمهم هجرة وأولهم إسلاماً، سيف من سيوف الله صبه على أعدائه، فانظروا إذا حمي الوطيس وثار القتام وتكسر المران وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلا غمغمة أو همهمة فاتبعوني وكونوا في أثري. قال: ثم حمل على أهل الشام وكسر فيهم رمحه فإذا هو الأشتر. قال: وخرج رجل من أهل الشام ينادي بين الصفين: يا أبا الحسن، يا علي، ابرز إلي. قال: فخرج إليه علي حتى إذا اختلف أعناق دابتيهما بين الصفين قال: يا علي إن لك قدماً في الإسلام وهجرة فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء وتأخير هذه الحروب حتى ترى من رأيك؟ فقال له علي: وما ذاك؟ قال: ترجع إلى عراقك فتخلي

بينك وبين العراق ونرجع إلى شامنا فتخلي بيننا وبين شامنا. فقال له علي: لقد عرفت، إنما عرضت هذا نصيحة وشفقة، ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينيه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ. إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فوجدت القتال أهون علي من معالجة الأغلال في جهنم، فرجع الشامي وهو يسترجع.

قال: وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتموا بالنبل حتى فنيت، ثم تطاحنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيف وعمد الحديد فلم يسمع السامع إلا وقع الحديد بعضه على بعض لهو أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً. قال: وانكشفت الشمس بالنقع وثار القتام وضلت الألوية والرايات. قال: وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها. قال: فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف الليل، لم يصلوا لله صلاة، فلم يزل يفعل ذلك الأشتر بالناس حتى أصبح والمعركة خلف ظهره وافترقوا عن سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم، وتلك الليلة هي «ليلة الهرير».

قال: وإن علياً قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد بلغ الأمر بكم وبعدوكم ما قد رأيتم ولم يبق منهم إلا آخر نفس، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا وأنا غاد عليهم أحاكمهم إلى الله (عز وجل).

فبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فقال: ياعمرو إنما هي الليلة حتى يغدو علي علينا بالفصل فما ترى؟ قال: إن رجالك لا يقومون لرجاله ولست مثله، هو يقاتلك على أمر واحد وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون إن ظفرت بهم. ولكن ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم فإنك بالغ به حاجتك في القوم، فإني لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه. فعرف ذلك معاوية فقال: صدقت.

نصر [عن عمرو بن شمر عن جابر بن عمير الأنصاري] قال: والله لكأني أسمع علياً يوم الهرير حين سار أهل الشام، وذلك بعدما طحنت رحى مذحج فيما بينها وبين عك ولخم وجذام والأشعريين بأمر عظيم تشيب منه النواصي، من حين استقلت الشمس حتى قام قائم الظهيرة. ثم إن علياً قال: حتى متى نخلي بين هذين الحيين؛ قد فنيا وأنتم وقوف تنظرون إليهم، أما تخافون مقت الله. ثم انفتل إلى القبلة ورفع يديه إلى الله ثم نادى: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا واحد، يا أحد، يا صمد، يا الله، يا إله محمد، اللهم إليك نُقلت الأقدام، وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، وامتدت الأعناق، وشخصت الأبصار، وطلبت الحوائج، اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا ﷺ، وكثرة عدونا وتشتت أهوائنا، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾، سيروا على بركة الله. ثم نادى: لا إله إلا الله والله أكبر، كلمة التقوى. ثم قال (الراوي): لا والله الذي بعث محمداً ﷺ بالحق نبياً، ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السموات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب، إنه قتل فيما ذكر العادون زيادة على خمسمائة من أعلام العرب، يخرج بسيفه منحنياً

فيقول: معذرة إلى الله (عز وجل) وإليكم من هذا، لقد هممت أن أصقله ولكن حجزني عنه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول كثيراً: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي» وأنا أقاتل به دونه. قال: فكنا نأخذه فنقومه ثم يتناوله من أيدينا فيتقحم به في عُرض الصف. فلا والله ما ليث بأشد نكاية في عدوه منه. رحمة الله عليه رحمة واسعة.

نصر [عن عمرو بن شمر عن جابر] قال: سمعت تميم بن جذيم يقول: لما أصبحنا من ليلة الهرير نظرنا فإذا أشباه الرايات أمام صف أهل الشام وسط الفيلق من حيال موقف معاوية، فلما أسفرنا فإذا هي المصاحف قد ربطت على أطراف الرماح، وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدوا ثلاثة أرماح جميعاً وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم يمسكه عشرة رهط. وقال أبو جعفر وأبو الطفيل: استقبلوا علياً بمائة مصحف ووضعوا في كل مجنبة مائتي مصحف، وكان جميعها خمسمائة مصحف. ثم قام الطفيل بن أدهم حيال علي، وقام أبو شريح الجذامي حيال الميمنة، وقام ورقاء بن المعمر حيال الميسرة، ثم نادوا: يا معشر العرب الله الله في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فنيتم. الله الله في دينكم. هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فقال علي: اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكيم الحق المبين. فاختلف أصحاب علي في الرأي فطائفة قالت القتال، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحل لنا الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب. فعند ذلك بطلت الحروب ووضعت أوزارها. فقال محمد بن علي: فعند ذلك حكم الحكمان.

قال نصر: [وفي حديث عمرو بن شمر بإسناده قال:] فلما كان اليوم

الأعظم قال أصحاب معاوية: والله ما نحن لنبرح اليوم العرصة حتى يفتح الله لنا أو نموت. فبادروا القتال غدوة في يوم من أيام الشعرى طويل شديد الحر فتراموا حتى فنيت النبل ثم تطاعنوا حتى تقصفت رماحهم ثم نزل القوم عن خيولهم فمشى بعضهم إلى بعض بالسيوف حتى كسرت جفونها وقامت الفرسان في الركب، ثم اضطربوا بالسيوف وبعمد الحديد فلم يسمع السامع إلا تغمغم القوم وصليل الحديد في الهام وتكادم الأفواه، وكسفت الشمس و ثار القتام وضلت الألوية والرايات ومرت مواقيع أربع صلوات لم يُسجد لله فيهن إلا تكبيراً. ونادت المشيخة في تلك الغمرات: يا معشر العرب، الله الله في الحرُمات من النساء والبنات. قال جابر: فبكى جعفر وهو يحدثنا بهذا الحديث. قال: وأقبل الأشتر على فرس كميت محذوف قد وضع مغفره على قربوس السرج وهو يقول: اصبروا يا معشر المؤمنين فقد حمي الوطيس. ورجعت الشمس من الكسوف واشتد القتال وأخذت السباع بعضها بعضاً، فهم كما قال الشاعر:

مضت واستأخر القرعاء عنها وخُلي بينهم إلا الوريع

قال: يقول واحد [لصاحبه] في تلك الحال: أي رجل هذا لو كانت له نية. فيقول له صاحبه: وأي نية أعظم من هذه ثكلتك أمك وهبلتك، إن رجلاً فيما قد ترى قد سبح في الدماء وما أضجرته الحرب، وقد غلت هام الكماة من الحر وبلغت القلوب الحناجر، وهو كما تراه جذعاً يقول هذه المقالة! اللهم لا تبقنا بعد هذا.

نصر [عن عمر بن شمر، عن جابر، عن الشعبي، عن صعصعة] قال: قام الأشعث بن قيس الكندي ليلة الهرير في أصحابه من كندة فقال: الحمد لله

أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأستنصره وأستغفره وأستخيره وأستهديه [وأستشيره وأستشهد به]، فإن من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له . . . ثم قال: لقد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط. ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا إن نحن تواقفنا غداً إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات. أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف ولكني رجل مُسن أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا. اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والرأي يخطئ ويصيب، وإذا قضى الله أمراً أمضاه على ما أحب العباد أو كرهوا، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

قال صعصعة: فانطلق عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث وقال: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غداً لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ولتميلن أهل فارس على نساء أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، اربطوا المصاحف على أطراف القنا. قال صعصعة: فثار أهل الشام فنادوا في سواد الليل: يا أهل العراق، من لذرارينا إن قتلتمونا ومن لذراريكم إن قتلناكم؟ الله الله في البقية. فأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح وقلدوها الخيل والناس على الرايات قد اشتهوا ما دعوا إليه، ورفع مصحف دمشق الأعظم تحمله عشرة رجال على رؤوس الرماح ونادوا: يا أهل العراق، كتاب الله بيننا وبينكم. وأقبل أبو الأعور السلمي على برذون أبيض وقد وضع المصحف على رأسه ينادي: يا أهل العراق، كتاب الله بيننا

وبينكم. وأقبل عدي بن حاتم فقال: يا أمير المؤمنين، إن كان أهلُ الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم يُصب عصبة منا إلا وقد أصيب مثلها منهم، وكل مقروح، ولكنا أمثلُ بقية منهم، وقد جزع القوم وليس بعد إلا ما تحب فناجز القوم. فقام الأشتر النخعي فقال: يا أمير المؤمنين، إن معاوية لا خلف له من رجاله ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولاتصبرك، فاقرع الحديد بالحديد واستعن بالله الحميد.

ثم قام عمرو بن الحمق فقال: ياأمير المؤمنين، إنا والله ما أجبناك ولا نصرناك عصبية على الباطل ولا أجبنا إلا الله عز وجل، ولا طلبنا إلا الحق، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوت إليه لاستشرى فيه اللجاج وطالت فيه النجوى، وقد بلغ الحق مقطعه، وليس لنا معك رأي.

وقام الأشعث بن قيس مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، وليس آخر أمرنا كأوله وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام مني. فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال. فقال علي (عليه السلام): إن هذا أمر ينظر فيه.

وذكروا أن أهل الشام جزعوا فقالوا: يا معاوية، ما نرى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه فأعدها جذعة، فإنك قد غمرت بدعائك القوم وأطمعتهم فيك. فدعا معاوية عبدالله بن عمرو بن العاص وأمره أن يكلم أهل العراق، فأقبل حتى إذا كان بين الصفين نادى: يا أهل العراق، أنا عبدالله بن عمرو بن العاص، إنما قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا، فإن تكن للدين فقد والله أعذرنا وأعذرتم وإن تكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وقد دعوناكم

إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذلك من الله، فاغتنموا هذه الفرجة لعله أن يعيش فيها المحترف وينسى فيها القتيل، فإن بقاء المهلك بعد الهالك قليل. فخرج سعيد بن قيس فقال: يا أهل الشام إنه قد كان بيننا وبينكم أمور حامينا فيها على الدين والدنيا سميتموها غدراً وسرفاً وقد دعوتمونا اليوم إلى ما قاتلناكم عليه بالأمس، ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل من أن يحكم بما أنزل الله، فالأمر في أيدينا دونكم وإلا فنحن نحن وأنتم أنتم.

وقام الناس إلى علي وقالوا: أجب القوم إلى ما دعوك إليه فإنا قد فنينا. ونادى إنسان من أهل الشام في سواد الليل بشعر سمعه الناس وهو:

رؤوس العراق أجيبوا الدعاء ... فقد بُلغت غاية الشدة

وقد أودت الحرب بالعالمين ... وأهل الحفائظ والنجدة

فلسنا ولستم من المشركين ... ولا المجمعين على الردة

. . .

فإن تقبلوها ففيها البقاء ... وأمن الفريقين والبلدة

وإن تدفعوها ففيها الفناء ... وكل بلاء إلى مدة

. . .

ثلاثة رهط هم أهلها ... وإن يسكتوا تخمد الوقدة

سعيد بن قيس وكبش العراق ... وذاك المسود من كندة

نصر: هؤلاء النفر المسمون في الصلح. قال: فأما المسود من كندة فهو

الأشعث فإنه لم يرض بالسكوت بل كان من أعظم الناس قولاً في إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة، وأما كبش العراق و هو الأشتر فلم يكن يرى إلا الحرب ولكنه سكت على مضض، وأما سعيد بن قيس فتارة هكذا وتارة هكذا.

قال: ذكروا أن الناس ماجوا وقالوا: أكلتنا الحرب وقتلت الرجال، وقال قوم: نقاتل القوم عى ما قاتلناهم عليه أمس، ولم يقل هذا إلا قليل من الناس ثم رجعوا عن قولهم مع الجماعة. وثارت الجماعة بالموادعة، فقام علي أمير المؤمنين فقال: إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوكم فلم تترك وإنها فيهم أنكى وأنهك، ألا إني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً، وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون، ثم قعد. ثم تكلم رؤساء القبائل فأما من ربيعة، وهي الجبهة العظمى، فقام كردوس بن هانئ البكري فقال: أيها الناس إنا والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ولا تبرأنا من علي منذ توليناه، وإن قتلانا لشهداء وإن أحياءنا لأبرار، وإن علياً لعلى بينة من ربه ما أحدث إلا الإنصاف، وكل محق منصف، فمن سلم له نجا ومن خالفه هلك.

ثم قام شفيق بن ثور البكري فقال: أيها الناس إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه، وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله، وإن علياً ليس بالراجع الناكص ولا الشاك الواقف، وهو اليوم على ما كان عليه أمس، وقد أكلتنا هذه الحرب ولانرى البقاء إلا في الموادعة.

ثم قام حريث بن جابر البكري فقال: أيها الناس، إن علياً لو كان خلفاً من

هذا الأمر لكان المفزع إليه فكيف وهو قائده وسائقه، وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا ما دعاهم إليه أمس، ولو رده عليهم كنتم له أعنت، ولايُلحد في هذا الأمر إلا راجع على عقبيه أو مستدرج بغرور، فما بيننا وبين من طغى علينا إلا السيف.

ثم قام خالد بن المعمر فقال: يا أمير المؤمنين، إنا والله ما اخترنا هذا المقام أن يكون أحد هو أولى به منا، غير أنا جعلناه ذخراً وقلنا: أحب الأمور إلينا ما كفينا مؤونته، فأما إذا سبقنا المقام فإنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك إليه القوم إن رأيت ذلك، فإن لم تره فرأيك أفضل.

ثم إن الحضين الربعي، وهو أصغر القوم سناً قام فقال: أيها الناس، إنما بني هذا الدين على التسليم فلا توفروه بالقياس ولا تهدموه بالشفقة، فإنا والله لولا أنا لا نقبل إلا ما نعرف لأصبح الحق في أيدينا قليلاً، ولو تركنا ما نهوى لكان الباطل في أيدينا كثيراً، وإن لنا داعياً قد حمدنا ورده وصدره وهو المصدق على ما قال المأمون على ما فعل، فإن قال لا قلنا لا وإن قال نعم قلنا نعم.

فبلغ ذلك معاوية فبعث إلى مصقلة بن هبيرة فقال: يا مصقلة ما لقيت من أحد ما لقيت من ربيعة. قال: ما هم منك بأبعد من غيرهم وأنا باعث إليهم فيما صنعوا. فبعث مصقلة إلى الربعيين فقال:

من يُهلك القوم أن تبدى نصيحتهم ... إلا شـــقيق أخو ذهل وكـبردوس

وابن المعمـــر لا تنفـك خطبتـــه ... فيها البيان وأمر القـــوم ملبـــوس

. . .

كل القبائـــل قد أدى نصيحتـــه ... إلا ربيعـــة رغم القوم محبـــوس

وقال النجاشي :

إن الأراقم لا يغشاهم بوس ... ما دافع الله عن حوباء كردوس

نمته من تغلب الغلبا فوارسها ... تلك الرؤوس وأبناء المرائيس

ما بال كل أمير يستراب به ... دين صحيح وراس غير ملبوس

وإلى علياً بغدر بذ منه إذا ... ما صرح الغدر عن رد الضغابيس

. . . [إلى آخر الأبيات]

وقال فيما قال خالد بن المعمر :

وفت لعلي من ربيعة عصبة ... بُصم العوالي والصفيح المذكر

شقيق وكردوس ابن سيد تغلب ... وقد قام فيها خالد بن المعمر

وقارع بالشورى حريثُ بن جابر ... وفاز بها لولا حضين بن منذر

. . . [إلى آخر الأبيات]

وقال الصلتان :

شقيق بن ثور قام فينا بخطبة ... يحدثها الركبان أهل المشاعر

بما لم يقف فينا خطيب بمثلها ... جزى الله خيراً من خطيب وناصر

وقد قام فينا خالد بن معمّر ... وكردوس الحامي ذمار العشاير

بمثل الذي جادا به حذو فعله ... وقد بين الشورى حريث بن جابر

. . . [إلى آخر الأبيات]

وقال حريث بن جابر :

أتى نبـــأ من الأنبـــاء يمنى وقد يُشـفى من الخـــبر الخبـير

قال : فلما ظهر قول حضين رمته بكر بن وائل بالعداوة ، ثم إن علياً أصلح بينهم . وقال رفاعة بن شداد البجلي : أيها الناس ، إنه لا يفوتنا شيء من حقنا وقد دعونا في آخر أمرنا إلى ما دعونا إليه في أوله ، وقد قبلوه من حيث لا يعقلون فإن يتم الأمر على ما نريد فبعد بلاء وقتل وإلا أثرناها جذعة وقد رجع إليها جدنا . وقال في ذلك :

تطاول ليلي للهموم الحواضر وقتلى أصيبت من رؤوس المعاشر

بصفين أمست والحوادث جمة يهيل عليها الترب ذيلُ الأعاصر

فإنهم في ملتقى الخيل بُكـــرة وقد جالت الأبطال دون المساعر

فإن يك أهلُ الشام نالوا سراتنا فقد نيل منهم مثلُ جزرة جـــازر

أثرنا التي كانت بصفين بكـرة ولم نك في تسعيرها بعواثـــــر

فإن حكماً بالحق كانت سلامة ورأي وقانا منه من شؤم ثائـــر

وفي حديث عمر بن سعد قال : لما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح يدعون إلى حكم القرآن قال علي (عليه السلام) : عباد الله ، إني أحق من أجاب إلى كتاب الله ، إنها كلمة حق يراد بها باطل ، إنهم والله ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة ، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يُقطع دابر الذين ظلموا . فجاءه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي السلاح سيوفهم على

عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: يا علي، أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تُجبهم. فقال لهم: ويحكم، أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتابه، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون. قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتيك. وقد كان الأشتر صبيحة ليل الهرير قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله.

نصر [فحدثني فضيل بن خديج، عن رجل من النخع قال: رأيت إبراهيم ابن الأشتر دخل على مصعب بن الزبير فسأله عن الحال كيف كانت، فقال: كنت عند علي حين بعث إلى الأشتر أن يأتيه وقد كان [الأشتر] أشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل [إليه] علي يزيد بن هانئ فأتاه فبلغه، فقال الأشتر: ائته فقل له ليس هذه الساعة [التي] ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي، إني قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني. فرجع يزيد بن هانئ إلى علي فأخبره، فما هو إلا أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام، فقال له القوم: والله ما نراك إلا أمرته بقتال القوم. قال: أرأيتموني سررت رسولي؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك وإلا فوالله اعتزلناك. قال: ويحك يا يزيد قل له، أقبل إلي فإن الفتنة. فأتاه فأخبره، فقال له الأشتر: ألرفع هذه

المصاحف؟ قال: نعم. قال: أما والله لقد ظننت بها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة إنها من مشورة ابن النابغة -يعني عمرو بن العاص- قال: ثم قال ليزيد: [ويحك] ألا ترى إلى الفتح، ألا ترى إلى ما يلقون، ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا، أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟ فقال له يزيد: أتحب أنك ظفرت ههنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يُفرج عنه ويسلم إلى عدوه؟ قال: سبحان الله، لا، والله ما أحب ذلك، قال: فإنهم قالوا: لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا عثمان أو لنسلمنك إلى عدوك. قال: فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم فصاح وقال: يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم فظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى مافيها؟ وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم، أمهلوني فواتاً فإني قد أحسست بالفتح. قالوا: لا، قال: فأمهلوني قال: فحدثوني عنكم- وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم -متى كنتم محقين، أحين كنتم تقتلون (تقاتلون) أهل الشام، فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون، أم [أنتم] الآن [في إمساككم عن القتال] محقون؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيراً منكم في النار. قالوا: دعنا منك يا أشتر قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله، إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا. قال: خُدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم. يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت، ألا فقبحاً يا أصحاب النّيب الجلالة، ما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً. . . . فسبوه وسبهم وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم فصاح بهم علي فكفوا. وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين احمل الصف على الصف

يُصرع القوم فتصايحوا: إن علياً أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن ولا يسعه إلا ذلك. قال الأشتر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي بحكم القرآن فقد رضيت بما رضي أمير المؤمنين. فأقبل الناس يقولون: قد رضي أمير المؤمنين، قد قبل أمير المؤمنين، وهو ساكت لا يبص بكلمة مطرق إلى الأرض.

قال: ولما صدر علي من صفين أنشأ يقول:

وكم قد تركنا في دمشق وأرضها ... من أشمط موتور وشمطاء ثاكل

وغانية صاد الرماح حليلها ... فأضحت تعد اليوم إحدى الأرامل

تبكي على بعل لها راح غادياً ... فليس إلى يوم الحساب بقافل

وإنا أناس ما تصيب رماحنا ... إذا ما طعنا القوم غير المقاتل

قال: وقال الناس: قد قبلنا أن تجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً. وبعث معاوية أبا الأعور السلمي على برذون أبيض فسار بين الصفين صف أهل العراق وصف أهل الشام والمصحف على رأسه وهو يقول: كتاب الله بيننا وبينكم. فأرسل معاوية إلى علي: «إن هذا الأمر قد طال بيننا وبينك وكل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه ولن يعطي واحد منا الطاعة للآخر، وقد قتل فيما بيننا بشر كثير وأنا أتخوف أن يكون ما بقي أشد مما مضى وإنا سوف نسأل عن ذلك الموطن ولا يُحاسب به غيري وغيرك، فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة وصلاح للأمة وحقن للدماء وألفة للدين وذهاب للضغائن والفتن، أن يحكم بيننا وبينك حكمان رضيان أحدهما من أصحابي والآخر من أصحابك فيحكمان بما في كتاب الله بيننا فإنه خير لي ولك وأقطع

لهذه الفتن. فاتق الله فيما دُعيت له وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله والسلام.»

فكتب إليه علي بن أبي طالب: «من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد فإن أفضل ما شغل به المرء نفسه اتباعُ ما يحسن به فعله ويستوجب ويسلم من عيبه، وإن البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه ويبديان من خلله عند من يغنيه ما استرعاه الله ما لا يغني عنه تدبيره. فاحذر الدنيا فإنه لا فرح في شيء وصلت إليه منها، ولقد علمت أنك غير مُدرك ما قُضي فواته، وقد رام قوم أمراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكذبهم ومتعهم قليلاً ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ. فاحذر يوماً يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ولم يُحاده فغرته الدنيا واطمأن إليها. ثم إنك قد دعوتني إلى حكم القرآن ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ولست حكمه تريد، والله المستعان، ولقد أجبنا القرآن إلى حكمه ولسنا إياك أجبنا، ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالاً بعيداً».

(صفين ص ٥٤٦-٥٦٦)